

قواعد صياغة الإنسان المتحضر عند ابن خلدون من خلال "المقدمة"

د.رقية بوسنان

جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة

تعد الكتابة والحفر في أفكار المفكرين المسلمين من الأهمية بمكان، فهي بمثابة الإضاءات التي تنير عقول الأفراد وترشدتهم إلى المسالك الصحيحة من أجل حياة أفضل، وهي بمثابة الصخور كمواد أولية لأي بناء مادي يجتمع فيه الأفراد لإدارة شؤون حياتهم، تعالج هذه الأفكار في مجملها كل المواضيع والمشكلات التي تحيط بالأفراد منعزلين أو مجتمعين، ومن أهم المواضيع التي شغلت أقلام هؤلاء المفكرين، موضوع الإنسان، التي يعد أساس بناء المجتمعات و الحضارات، إن لم أقل هو المجتمع أو الحضارة نفسيهما، فالإنسان كمصطلح إذا أطلق أريد به الكثير من المفاهيم ذات الدلالات العميقة.

ومن أهم المفكرين الذين حاولوا تجلية مفهوم الإنسان وخصائصه ومقومات بنائه، العلامة ابن خلدون، الذي تعد مقدمته، كنزا معرفيا يمكن اكتشافه بعد قراءة عميقة وواعية، ف جاء هذا البحث المتواضع لتجلية أهم جانب أو مكون من مكونات الكون والحضارة وهو الإنسان وقد تم معالجة هذا البحث وفقا لمخاور مختلفة.

وضعت في البداية إطارا منهجيا للبحث، شمل الإشكالية، وأهمية البحث، وأهدافه ومنهجه، ثم تناولت مفهوم الإنسان عند ابن خلدون، والذي وسع مفهومه وفق لخصائص يتصف بها وهي خصائص كثيرة، ووفقا للوظائف المنوطة به وهي كثيرة ايضا، كما تناولت قواعد صياغة تحضيره، والتي حصرت في المجال السياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والمدني، وتم توضيح القيم المرتبطة بهذه القواعد وهي معظمها قيم مادية ومعنوية أساسها تحديد السلوك والصفات التي ينبغي ان يتحلى بها الإنسان المتحضر، وفي الخور الاخير تم تحديد الإسناد المعرفي الذي اعتمد عليه ابن خلدون في التأسيس لمفهوم الإنسان وقواعد تحضيره.

أولاً: الإشكالية

يوحي عنوان الورقة أن الإنسان أساس للبناء والفاعلية الحضاريين، وهو المحور الأساسي التي تناوله الدراسات الاجتماعية والثقافية والسياسية، باعتباره الفاعل و المفعول به، والفعل حركة مستمرة تنبع من خصوصيات ومكونات هذا الإنسان المادية والمعنوية، والقيمية، والحديث عن هذا الإنسان وقواعد تحضره عند ابن خلدون تحديداً، سيعطي للورقة جاذبية علمية ومعرفية نظير شخصية ابن خلدون كمفكر أبدع في تأليفه أيما إبداع، فتعددت مجالات فكره، لتشمل التربية، والأخلاق، والسياسة، والمجتمع، والاقتصاد، والعمران، ولعل كتاب "المقدمة" المشهور والذي شدّ إليه العديد من الأقلام في مشرق الأرض ومغربها، واحتضنته الجامعات الغربية لمدراسته والاستفادة من ذرره ما يساعد في البحث عن هذه القواعد.

إن البحث عن قواعد صياغة الإنسان المتحضر عند ابن خلدون، لن تكون من باب الترف العلمي، إنما سيكون ذلك وفق منهج ينطلق من مقدمات ليصل إلى نتائج، ولعل في توظيف منهج الاستقراء، ما يساعد على استخراج هذه القواعد المهمة وقيمها المرتبطة بها، والتي قد تضيف أهمية معرفية للبحوث المختلفة عن ابن خلدون وفكره الخصب ذي البعد الاستشراقي.

إن توضيح واستقراء قواعد صياغة الإنسان المتحضر من خلال المقدمة، إنما هو إسهام في ضرورة تجليتها وتنزيلها للواقع للمساهمة في حل مشاكله، إقليمياً، دولياً، أممياً، وحضارياً، وهي قواعد تختلف باختلاف المجال التي تنتمي إليه، وعليه جاء التساؤل الرئيسي كالاتي: ما هي قواعد صياغة الإنسان المتحضر عند ابن خلدون؟ ومن هذا التساؤل الرئيسي تفرعت الأسئلة الآتية:

- ما مفهوم الإنسان عند ابن خلدون؟
- ما هي أسس بناء الإنسان المتحضر؟
- ما هي القيم المادية والمعنوية المرتبطة بالقواعد؟
- ما هو الإسناد المعرفي لابن خلدون في تناوله للإنسان؟

ثانياً: أهمية البحث:

تنبع أهمية هذا البحث من كونها تنطلق من مفاهيم ودلالات هامة كالاتي:

__ مفهوم الإنسان ودلالاته الذي يعد مجالاً خصباً لأبحاث كمية ونوعية تحاول إبراز دوره في النسق الاجتماعي والحضاري.

__ الانحراف السلوكي الذي يمارسه هذا الإنسان والذي يسود المجتمعات الإسلامية من جوانب عديدة تكاد تشل منظومة القيم لابتعاده عن رسالته الأساسية وهي البناء والأعمار وفق الرؤية القرآنية.

أهمية الإنسان ودوره في البناء الاجتماعي والحضاري باعتباره الخليفة والمكلف بالإعمار وفقا لسبل الخير.

ضرورة وضع القواعد الأساسية والشروط العلمية والعملية لإعادة صياغة الإنسان وفقا للرؤية الإسلامية التي تسع كل الرؤى الإيجابية لترشيد سلوك الإنسان ومنطلقات فاعليته الحضارية.

أهمية فكر ابن خلدون الذي يستشرف في ثناياه واقع الإنسان في المجالات المختلفة السياسية والاقتصادية والثقافية، وإبراز هذا الفكر الهادئ والمتزن في هذا المجال الهام.

ثالثا: أهداف البحث:

توخيت من خلال هذا البحث تحقيق الأهداف الآتية:

- تعريف الإنسان عند ابن خلدون وخصائصه
- تحديد اهم قواعد صياغة الإنسان المتحضر
- تحديد بعض القيم المتعلقة بصياغة الإنسان المتحضر.
- توضيح الإسناد المعرفي لابن خلدون في مرلفه.

رابعا: منهج البحث

تعتمد الباحثة في هذه الورقة المنهج الاستقرائي، والاستقراء هو عملية استدلال صاعد يرتقي فيه الباحث من الحالات الجزئية إلى القواعد العامة، أي انتقال من الجزئيات إلى حكم عام، ولذلك تعتبر نتائج الاستقراء أعم من مقدماته، ويتحقق الاستقراء من خلال الملاحظة والتجربة ومختلف تقنيات البحث المتبعة.

والاستقراء له دلالات عدة فهو عند المنطقيين يعني الحكم على كلي بما يوجد في جزئياته الكثيرة، ويعرفه الإمام الغزالي بقوله " هو أنه تتصفح جزئيات كثيرة داخله تحت معنى كلي، حتى إذا وجدت حكما في تلك الجزئيات حكم على ذلك الكلي به " ، ويعرفه الدكتور عبد الرحمن بدوي بقوله: " تعميم من حالات جزئية تتصف بصفة مشتركة " و ينقسم الاستقراء إلى ناقص و تام: أما الأول فهو انتقال الذهن من الحكم على الجزئيات إلى الحكم على الكلي. وهو استدلال معرض للاختلال لاحتمال سقوطه بعدم استقراء جزئية واحدة. و أما التام فهو انتقال الذهن من الحكم على جميع الجزئيات إلى الحكم على كليها.

وتمر الباحثة في إعمالها للمنهج الاستقرائي من مراحل بحثية:

قراءة كل الجزئيات المتعلقة بالإنسان والتي ورد في سياقات مختلفة في أجزاء من المقدمة

__ تصنيف هذه القراءة إلى محاور رئيسة وفقا للأسئلة التي وضعتها ضمن الاشكالية.

__ إدراج كل الجزئيات الخاصة بموضوع البحث تحت هذه المحاور الرئيسية وتحليلها.

__ صياغة رؤية متكاملة حول الإنسان وقواعد تحضره

المحور الأول: الإنسان عند ابن خلدون

تتكامل الرؤية الخلدونية لمفهوم الإنسان وما يتعلق به، فهي تنطلق من الرؤية القرآنية لخلقه، كما تنطلق من نظريات علمية مفسرة لهذا الإنسان، من حيث خصائصه التي يتصف بها ، فهو يصف الإنسان بأنه خليفة الله في أرضه وما يجب القيام به بمقتضى هذا الاستخلاف، كما يصفه بأنه إنسان عاقل ومفكر، له إدراك وإرادة يتحقق بهما الاجتماع والتعاون، وتساهم سيرة ابن خلدون ومسيرته في تنظيره لمفهوم الإنسان، فجعل المؤلفات* تتفق على ان ابن خلدون كان مشاركاً في أحداث عصره إما بالممارسة والمشاركة او الكتابة التأليف بالإضافة إلى كتاب المقدمة الذي ينقل تجربته العلمية والعملية وعليه فإن مفهوم ابن خلدون ينطلق في تعريفه للإنسان من عدة مسلمات هي كالآتي:

1- خلق الإنسان لتحقيق مهمة الاستخلاف انطلاقاً من الوظائف التي يمكن أن يتقلدها، وإذ يركز ابن خلدون على وظيفة الرئاسة، باعتبارها وظيفة مهمة وحساسة فيقول: "الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له"¹، فإن ما يعني هنا هو مهمة الاستخلاف وهي الأصل الذي خلق منه الإنسان، يقول الله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً" (البقرة:30)، والخلافة تقتضي مؤهلات علمية وعملية تتوجهها المسالك الصحيحة التي يسلكها هذا الإنسان.

2- يتميز الإنسان عن سائر المخلوقات بالفكر، وهو محل المفاضلة، ويعني أعمال النظر في الموجودات، وتسخيرها له من أجل الاستقرار وتحقيق الوجود، يترتب على هذا التسخير السعي والعمل في مختلف المجالات، الاقتصادية والثقافية والسياسية وفي البيئات المتنوعة وفق معادلة البذل والأخذ، وبما يتحقق التعاون الذي هو أساسي في توفير الغذاء والسكن والتعاش، وعمل الفكر الإيجابي لا يتحقق إلا باتباع الطريق المستقيم وهو طريق الرسل والانبياء.

* من هذه المؤلفات: محمد فاروق النبهان، الفكر الخلدوني من خلال المقدمة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1998، الجليلاني بن التهامي مفتاح، فلسفة الإنسان عند ابن خلدون، الجامعة الاسلامية العالمية، ماليزيان دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011، عبد الواحد وافي، عبد الرحمن ابن خلدون، حياته وآثاره ومظاهر عبقريته، وزارة الثقافة والارشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، مكتبة مصر، دت.

¹ ابن خلدون، المقدمة ، الفصل الرابع و العشرون في أن الأمة إذا غلبت و صارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء ، دار الجليل، بيروت، ج1، ص136.

يقول: " وذلك أن الإنسان قد شاركته جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء وغير ذلك وإنما يتميز عنها بالفكر الذي يهتدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بإبناء جنسه والاجتماع المهيب لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الانبياء عن الله تعالى والعمل بهو اتباع صلاح اخراه فهو مفكر في ذلك كله دائما لا يفتر عن الفكر فيه طرفة عين بل اختلاج الفكر اسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ العلوم وما قدمناه من الصنائع".²

3- العلم صفة أصيلة في الإنسان باعتباره مفكرا يقول ابن خلدون: "و أما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة بل بوجه النظر فيها إلى أهل الملل كلهم و يستوون في مداركها و مباحثها. و هي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة. و تسمى هذه العلوم علوم الفلسفة و الحكمة"³.

4- يتميز الإنسان بالإدراك والإرادة، فالإدراك وهو العملية التي تتم بها معرفة العالم الخارجي والتعرف على الإحساسات وإعطائها معنى، ويشمل العالم الخارجي مختلف العوالم المادية والمعنوية، وأما الإرادة فتعني العزيمة والتصميم على الاختيار بعد المفاضلة بين عدة بدائل، والتحكم في العقل والجسد من أجل عمل ما يشاءه الفرد، حتى ولو كان صعباً بدون أن يجبره أحد على ذلك، وهذا العمل قد يكون في صورة حركة بدنية أو عمليات عقلية أو منع سلوك معين من الصدور.... وقد ارتبط مفهوم الإرادة بالرغبة والحاجة والسعادة، وكلا الميزتين تعبران عن الروح العاقلة والمتصرفة.

يقول: "و ذلك أن الإنسان بما هو إنسان إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك و إدراكه نوعان: إدراك للعلوم و المعارف من اليقين و الفن و الشك و الوهم و إدراك للأحوال القائمة من الفرح و الحزن و القبض و البسط و الرضى و الغضب و الصبر و الشكر و أمثال ذلك، فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من إدراكات و إرادات و أحوال و هي التي يميز بها الإنسان، و بعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الأدلة و الفرح و الحزن عن إدراك المؤلم أو المتلذذ به و النشاط عن الحما و الكسل عن الإعياء"⁴.

5- لا يستطيع الإنسان أن يعيش بمفرده، فالاجتماع ضرورة تقتضيها طبيعة الإنسان، وتركيبه النفسي والبيولوجي، فهو يحتاج إلى نظرائه لتحقيق الضرورات من العيش وهو الغذاء والاجتماع فطرة في الإنسان مجبول عليها ولا حياة له من دونها. يقول: " ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم الإنسان مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم و هو معنى العمران و بيانه أن الله

² الفصل الاول في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري، ص 476.

³ الفصل التاسع عشر: في العلوم العقلية و أصنافها، ص 529.

⁴ الفصل الحادي عشر: في علم التصوف ، ص 518.

سبحانه خلق الإنسان و ركبه على صورة لا يصح حياتها و بقاؤها إلا بالغذاء و هداة إلى التماسه بفطرته و بما ركب فيه من القدرة على تحصيله"⁵.

6- يعتبر الإنسان ابن بيئته التي يكتسب منها السلوكات المختلفة وهو ما تشير إليه النظريات المفسرة لتنشئته^{6*}، وتكوين شخصيته، وقد نستدل على ذلك بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ"⁷، يقول: "و أصله أن الإنسان ابن عوائده و مألوفه لا ابن طبيعته و مزاجه فالذي ألفه في الأحوال حتى صار خلقاً و ملكة و عادة تنزل منزلة الطبيعة و الجبلية و اعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيراً صحيحاً"⁸.

7- يتميز الإنسان يمرحله نمو متناهية الدقة تبدأ من طور النطفة إلى العلقة فالمضغة فالتصوير فالجنين فالولادة فالرضيع فالطفل فالشباب إلى نهاية موته، وكل مرحلة لها تراكيب مختلفة عن سابقتها، يميزه الضعف والقوة، وتقر علوم الإنسان المختلفة بهذا التطور الدقيق الذي تعجز عن تكوينه المصانع المتخصصة في تصنيع المواد والآلات المختلفة.

ويقول في معرض تفسيره لمراحل النمو: " و انظر شأن الإنسان في طور النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم إلى نهايته. و نسب الأجزاء في كل طور تختلف في مقاديرها و كفياتها و إلا لكان الطور الأول بعينه هو الآخر و كذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الآخر... فلا بد من تصور هذه الحالات للذهب في أحواله المتعددة و نسبها المتفاوتة في كل طور... و هذه المادة إنما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك و إنما حال من يدعي حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمثابة من يدعي بالصنعة تخليق إنسان من المني، و نحن إذا سلمنا له الإحاطة بأجزائه و نسبته و أطواره و كيفية تخليقه في رحمه و علم ذلك علماً محصلاً بتفاصيله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الإنسان وأنى له ذلك"⁹.

8- الإنسان خير بطبعه والخيرية قيمة أساسية للقيادة: هذه الميزة التي يتصف بها الإنسان هي نتاج ميزات أخرى كالفكر والإدراك التي سبق الإشارة إليها، والتي تميزه عن الحيوان الذي يخضع لقانون الغاب، فالبقاء فيه للأقوى، بينما هو في عالم الإنسان إنما هي قيمة مساعدة للقيادة الرشيدة وتحقيق

⁵ المقدمة، الفصل الأول من الكتاب الأول في العمران البشري على الجملة و فيه مقدمات، ص 46.

* هذه النظريات هي: نظرية التحليل النفسي، النظرية السلوكية، النظرية المعرفية،⁶ محمد الشناوي وآخرون، التنشئة الاجتماعية للطفل، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2001، ص 199، 198، واقترحت الباحثة ما يسمى بالتصور الاسلامي، اجتهدت الباحثة في وضع تصور لهذه النظرية، انطلاقاً من أبعاد النظريات المفسرة لاكتساب القيم ويمكن مراجعتها وتصويبها.

⁷ الراوي: أبو هريرة المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري - الصفحة أو الرقم: 1359، درجة الحديث: صحيح.

⁸ الفصل الخامس في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة، ص 138.

⁹ الفصل الثالث و الثلاثون: في انكار ثمرة الكيمياء و استحالة وجودها و ما ينشأ من المفاصد عن انتحالها، ص 583، 584.

المنافع للعشيرة والدولة وتطبيق قانون العدل، ووجود الخير في الإنسان من غير أن تحصل منافعه إنما هو جهل به أو تجاهل نحو أهميته الاجتماعية.

يقول: "ما كان الملك طبيعياً للإنسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قلناه و كان الإنسان أقرب إلى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته و قوته الناطقة العاقلة لأن الشر إنما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه و إما من حيث هو إنسان فهو إلى الخير و خلاله أقرب و الملك و السياسة إنما كانا له من حيث هو إنسان لأنهما للإنسان خاصة لا للحيوان فإذاً خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة و الملك إذ الخير هو المناسب للسياسة و قد ذكرنا أن المجد له أصل يبنى عليه و تتحقق به حقيقة و هو العصبية و العشير و فرع يتمم و جوده و يكمله و هو خلال و إذا كان الملك غاية للعصبية فهو غاية لفروعها و متماتها و هي خلال لأن وجوده دون متماته كوجود شخص مقطوع الأعضاء"¹⁰.

المحور الثاني: قواعد صياغة الإنسان المتحضر.

هي مجموعة الأسس والأصول التي تساهم في بناء الإنشاء الفاعل اجتماعيا وحضاريا حتى يؤدي وظيفة عمارة الأرض والاستخلاف من غير الإخلال بالوظيفة المسندة إليه، لكن حال العمران والمجتمعات يوحي بأن هناك فسادا في البر والبحر ومشاكل حقيقة ومتستعصية تنتشر بشكل ملفت ومريب، فسفك الدماء صارت لغة قائمة بذاتها، والعنف والجريمة يتصدران الأعمال المرفوضة شرعا وعقلا و قانونا، والفقر والجهل يستحوذ على طبقات هائلة من العالم، والظلم والاستبداد والقهر صور جليلة في مختلف المجتمعات، وكلها مظاهر تعبر عن ثقافة الإنسان المنتشر عبر الزمان والمكان، فاختلفت بذلك وظائفه على مستويات عدة، ذاتية واجتماعية وسياسية وثقافية، وحضارية.

وحال الاختلال على مستوى المجتمعات والحضارات ليس بالشئ الجديد، وقد حاول الكثير من الباحثين والمفكرين توضيح أوجهه وعوامل ذلك، فكتبوا عن دور الإنسان وحضوره في المشكلات المختلفة، وطرحوا بذلك مجموع كتابات مختلفة وإن لم تكن مصنفة أو متخصصة للكتابة عن هذا الدور، وعن خصوصيات هذا الإنسان ومدى إسهامه إيجابيا في تطوير وتحضير المجتمعات.

ولتوضيح ذلك كان التعامل مع مقدمة ابن خلدون ضرورة علمية لتحديد القواعد التي تصنع أو تبني الإنسان الفاعل والمتحضر لتلافي المشاكل المتعددة في المجتمعات المعاصرة، وقد تم توظيف المعاني التي وردت في سياقات تناول الإنسان وتعريفه وظيفيا واجتماعيا، فشملت القواعد: الإنسان الحاكم باعتباره الأساس في إدارة المجتمعات والقيام عليها، ثم الإنسان كفرد له خصائص مختلفة وجب عليه أن يتحلى بهذه القواعد باعتباره مشارك وأساسي في البناء الحضاري، وهذه القواعد هي:

¹⁰ الفصل العشرون، في أن من علامات الملك التنافس في خلال الحميدة و بالعكس، ص 157.

1- ضرورة التكامل العملي في إطار المجتمع

والمقصود من ذلك أن يقوم كل إنسان بعمل مقدور عليه يتكامل مع الأعمال الأخرى، والأعمال أو الصنائع كثيرة، كالزراعة والصناعة والتجارة، والطب والتعليم، فلا يستطيع الإنسان في كل حال من الأحوال أن يقوم بمجموع هذه الصنائع بمفرده، فكل صناعة تتطلب الإتقان والإنجاز، يقول: " و بيانه أن الله سبحانه خلق الإنسان و ركبه على صورة لا يصح حياتها و بقاؤها إلا بالغذاء و هدها إلى التماسه بفطرته و بما ركب فيه من القدرة على تحصيله إلا أن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من ذلك الغذاء غير موفية له بمادة حياته منه و لو فرضنا منه أقل ما يمكن فرصة و هو قوت يوم من الخنطة مثلاً فلا يحصل إلا بعلاج كثير من الطحن و العجن و الطبخ و كل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين و آلات لا تتم إلا بصناعات متعددة من حداد و نجار و فاحوري و هب أنه يأكله حباً من غير علاج فهو أيضاً يحتاج في تحصيله أيضاً حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من الزراعة و الحصاد و الدراس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل و يحتاج كل واحد من هذه آلات متعددة و صنائع كثيرة أكثر من الأولى بكثير و يستحيل أن تفي بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من إبناء جنسه ليحصل القوت له و لهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بإضعاف"¹¹.

2 - الانضباط بمقتضى الوازع القانوني:

وهو الوازع التي توفره السلطة الحاكمة للمجتمع حتى تحافظ على استقراره، من تشريع للقوانين وتنظيم للمؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية، تنظيماً صارماً يكون فيه الرجل المناسب في المكان المناسب، وإذا تم بهذه الطريقة السليمة فلن يكون هناك مجال للعبث باستقرار الفرد والمجتمع، أما إذا اختل التنظيم وغاب القانون الضابط، والرؤية المنطقية والمنهجية في العمل المؤسساتي، فالنتيجة هي استحكام الفساد واستشرائه، وهذا ما يشيع في وقتنا الحالي، وحتى نتجنب ذلك فعلى الإنسان أن يتقيد بهذا الوازع لحماية نفسه وحماية المجتمع من الانحرافات والسلوكات السلبية يقول: " ثم إن هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرناه و تم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان و الظلم... فيكون ذلك الوازع واحداً منهم يكون له عليهم الغلبة و السلطان و اليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان و هذا هو معنى الملك... و قد تبين بهذا أن للإنسان خاصة طبيعية فهو ينفذ لرئيسه بمقتضى الفكرة و السياسة"¹².

¹¹ المقدمة، ص 46.

¹² المقدمة، ص، 47، 48.

3 - الانضباط بمقتضى الوازع الديني.

يعتبر الدين أهم وأقوى وسيلة من وسائل الضبط، من خلال ما يقوم به من وظائف في حياة الفرد والمجتمع واستقرار النظم الاجتماعية، وهو يضبط سلوك الأفراد في المجتمع بالثواب والعقاب في الحياة وفي الآخرة، ويبرز أثر الدين وبالذات الدين الإسلامي كأداة ضبط فيما يشتمل عليه من تعاليم تمثل في مجملها مجموعة من الضوابط تظهر في العبادات المتعلقة في العلاقة بين العبد وخالقه سبحانه وتعالى، وفي المعاملات التي تعكس العلاقة بين الأفراد¹³.

ومن الدعائم التي يعتبرها (الماوردي) ضرورة للضبط الاجتماعي ستة أمور هي: "دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وأمل فسيح"¹⁴، والإرتقاء بالإنسان إلى مصف الإنسانية المكتملة والكمال لله، يحتاج إلى انضباط اخلاقي داخل المجتمع، هذا الانضباط ينبع من الوازع الديني أو الضمير وهما آليتان لتحضير الإنسان وجعله فاعلاً إيجابياً حيث تواجه، وهما آليتان لحفظ التوازن السلوكي له داخل الجماعة مما يدفع بالسلوكات السلبية إلى التراجع والاندثار، كالجرمة بانواعها والعنف بانواعه.

"وقد أدرك ابن خلدون الدور الذي يؤديه الدين في عملية الضبط الاجتماعي. لكونه يمارس نوعاً من الرقابة على سلوك الناس، وتمتد هذه الرقابة في السر والعلن، وهذا ما يميز الدين عن القانون، فالفرد يمثل للمعايير التي يفرضها الدين والتي تحدد الثواب والعقاب لجميع الأفعال والتصرفات التي يؤديها أو يمتنع عنها"¹⁵.

يقول ابن خلدون: "و لا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين و الشريعة و لم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلي عليهم من الترغيب و الترهيب و لم يكن بتعليم صناعي و لا تأديب تعليمي إنما هي أحكام الدين و آدابه المتلقاة نقلاً يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان و التصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت و لم تحدها أظفار التأديب و الحكم قال عمر رضي الله عنه (من لم يؤديه الشرع لا أدبه الله) حرصاً على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه و يقيناً بأن الشارع أعلم بمصالح العباد و لما تناقص الدين في الناس و أخذوا بالأحكام الوازعة ثم صار الشرع علماً و صناعة يؤخر بالتعليم و التأديب و رجع الناس إلى الحضارة و خلق الانقياد إلى

¹³ سلوى علي سليم، الاسلام والضبط الاجتماعي، مكتبة وهبه، الطبعة الاولى، 1985، ص61.

¹⁴ موسى ابو حوسه، قواعد الضبط الاجتماعي عند الماوردي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 17، المجلد 5، 1985، ص48.

¹⁵ خالد عبدالرحمن السالم، الضبط الاجتماعي والتماسك الأسري، الطبعة الأولى، 2000، ص 82.

الأحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم فقد تبين أن الأحكام السلطانية و التعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها ذاتي و لهذا كانت هذه الأحكام السلطانية و التعليم مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم و حصد الشوكة منهم بمعاناتهم في وليدهم و كهولهم¹⁶.

4- الابتعاد عن التغني بالنسب والانتماء القبلي.

هذا الاعتقاد ساد ويسود في مختلف الأزمنة، فما يزال الإنسان يعتقد بل ويمارس هذا الاعتقاد، باعتبار أن الانتماء لنسب أو قبيلة أو أسرة عريقة ذات جاه وحسب، هو سبب المفاضلة والارتقاء في المجال الديني، وعليه تترتب إسناد المسؤوليات وثبت الولاءات، وخاصة الوظائف العليا في إدارة شؤون المجتمعات أو الدول، من غير مشاركة فاعلة له أو جهد واضح في مختلف المجالات، ولعلي ألحظ ذلك في بعض الدول التي يثبت حكامها النسب إلى رسول الله وتفاخر في ذلك، لكن حضورها الدولي والحضاري يكاد يكون عارضا بوجود قوى توجهها أو تتعاون معها وفقا للمصالح المشتركة، وينتشر في مجتمعاتها الظلم والقهر والممارسات الباطلة، فيخرج الناس للمطالبة بالعدل وتحسين ظروفهم الاجتماعية، وهي في ذلك بعيدة كل البعد عن نسب رسوله الله وسيرته العطرة، وقد ألحظ ذلك فيمن يرى أنه الأحق بالمسؤوليات العليا لأنه ينتمي إلى أسرة راعيها من أهل العلم أو الثروة أو الثورة، وهو مقصر بحق العلم وفضائله، وقد يكون مغتصبا للثروة، وهو غير مشارك في الثورة، وغيرها من المظاهر السلبية المختلفة التي تسود في المجتمعات المعاصرة والتي تبحث تحديدا عن الإنسان الفاعل ولو من غير انتماء والذي يعي مشكلات عصره ويحاول قدر الطاقة أن يساهم في حلها بعيدا عن الانتماءات الضيقة وهوس النسب والشرف.

لقد ركز ابن خلدون على مسألة النسب والحسب، فجعلهما ينتهيان إلى الأب الرابع من الانبياء وهو شأن خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم، وهي لا تتأتى لأي إنسان، وأكد أن الانتماء والتفاخر به قد يقعد الإنسان عن مسؤوليته تكليفا لا تشريفا، وإن كان ابن خلدون يركز على مسؤولية الحكم فهو يرى فيه أعظم مسؤولية لأنه أساس بناء المجتمع والإنسان تحديدا، فيلمح بذلك أن اختيار الحاكم لا يكون بالانتماء فرما يفسده أو يجعله يتقاعس عن القيام بواجباته ولا يستطيع احد بعد ذلك ان يحاسبه أو يعرضه للعقاب، يقول: "و الحسب من العوارض التي تعرض للآدميين فهو كائن فاسد لا محالة و ليس يوجد لأحد من أهل الخليقة شرف متصل في آبائه من لدن آدم إليه إلا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه و سلم كرامة به و حياطة على السر فيه"

ويواصل في تصوير من يدعي النسب والذي يرى نفسه انه أحق بالمسؤولية التي يزعم انها ورثها عن نسبه، فيباشرها تقليدا لا اجتهادا من غير مراعاة من يحيطون به فينجر عن ذلك تركه والبحث عن

¹⁶ الفصل السادس في أن معاناة أهل الحضرة للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم ، ص 139.

من يجل محله وهكذا، فيقول: "و توهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة و لا تكلف و إنما هو أمر و جب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم و ليس بعصاة و لا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس و لا يعلم كيف كان حدوثها و لا سببها و يتوهم أنه النسب فقط فربأ بنفسه عن أهل عصيته و يرى الفصل له عليهم وثوقاً بما ربي فيه من استتباعهم و جهلاً بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم و الأخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينغصون عليه و يحتقرونه و يديلون منه سواه من أهل ذلك المنبت و من فروعها في غير ذلك العقب للإذعان لعصبيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو فروع هذا و تذوي فروع الأول و ينهدم بناء بيته هذا في الملوك و هكذا في بيوت القبائل و الأمراء و أهل العصبية أجمع ثم في بيوت أهل الأمصار إذا تحطمت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب"¹⁷.

5-التنازل لصالح تنظيم محكم تقوم عليه الحياة الكريمة

يعبر عنه ابن خلدون بالحكم الوازع، فالإنسان يحتاج آلياً إلى من يسوسه وينظمه وهذه الحاجة ضرورة عصرية، تنتظم بها الحياة السياسة والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تتطلب تنصيب جهاز رئاسي وحكومي يشرف عليها ومن شروطه الصرامة والعدل، وقد أحالت الشريعة إحداث هذا الجهاز للإنسان بحكم خصائصه العقلية منها والمادية، فاستحدثت المؤسسات التي تشرف عليه لتحفظ بقاءه وتتيح له الحياة الكريمة، والشرط أن يتقيد هذا الإنسان لهذا التنظيم عن وعي وبصيرة، وتقييد التنازل إنما للتنظيم المحكم القائم على أسس العدل والخير في جميع المجالات، أما أن يكون التنظيم مختلاً غير فاعل في شؤون الناس، فالتنازل في هذه الحالة يكون من باب المغامرة وعدم الوعي بالمعادلة السياسية والاجتماعية، وفحواها "تنظيم محكم تساوي بناء إنسان فاعل"، يقول ابن خلدون: "لما كان الإنسان متميزاً عن سائر الحيوانات بخواص اختصاص بها فمنها العلوم و الصنائع التي هي نتيجة الفكر الذي تميز به عن الحيوانات و شرف بوصفه على المخلوقات و منها الحاجة إلى الحكم الوازع و السلطان القاهر إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها إلا ما يقال عن النحل و الجراد و هذه و أن كان لها مثل ذلك فبطريق إلهامي لا بفكر و روية"¹⁸.

6 - ضرورة توفر القيادة الرشيدة.

يركيز ابن خلدون على ضرورة وجود القيادة الرشيدة، لأنها الأساس في تطور الإنسان ومعالجة قضاياها ومشكلاته، وهي قيادة تقوم على الحق وتقوم به، والقائد يتميز على البشر بما هو مؤهل له ويتم

¹⁷ الفصل الخامس عشر في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء ، ص 150، 151.

¹⁸ المقدمة الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخليفة و ما يعرض فيها من البدو و الحصر و التغلب و الكسب و المعاش و الصنائع و العلوم و نحوها و ما لذلك من العلل و الأسباب، ص 45.

اختياره من طرف الحكماء فهم أهل النظر والحكمة فيما اختصه الله لبشر دون آخر بالتسليم له والقبول، يقول: "و أنه لا بد للبشر من الحكم الوازع و ذلك الحكم يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر و أنه لا بد أن يكون متميزاً عنهم بما يودع الله فيه في خواص هدايته ليقع التسليم له و القبول منه حتى يتم الحكم فيهم و عليهم من غير إنكار و لا تزييف و هذه القضية للحكماء غير برهانية كما تراه إذ الوجود و حياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصية التي يقتدر بها على قهرهم و حملهم على جادته" ¹⁹.

ويشترط ابن خلدون شرطاً يراه أساسياً لتأهيل الإنسان للقيادة والحكم، وهو الرفق، وهو صفة وسلوك في آن واحد وقد وردت معانية في القرآن الكريم، كقوله تعالى: "فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّكَ فِطْرًا كَثِيرًا لَّوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ" (آل عمران:159)، كما ورد بإطلاقه لفظاً في السنة النبوية كقوله صلى الله عليه وسلم: "يا عائشة، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُفْلَهُ، قُلْتُ: أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ" ²⁰، وقوله: "إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانُهُ وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانُهُ" ²¹، هذه النصوص مما يؤكد على أهميته السياسية والاجتماعية والثقافية، فالرفق حيث ما توفر زانت به الأمور وارتقت وتطورت بخلاف العنف والقهر الذي يؤدي إلى انحراف في السلوك وامتتهان الرذائل من الاعمال، واستخدام العنف لغة للتعبير كرد فعل.

والقيادة أو الحكم من غير سبيل الرشده، إذا ساست بالقوة واستخدمت أسلوب العنف، كان رد فعل الإنسان العنف المقابل وتعرضت أركان الدولة إلى الخراب وكثرت حركات الانقلاب وتربص الأعداء بالدولة وتمكنوا منها، يقول ابن خلدون: "و يعود حسن الملكة إلى الرفق فإن الملك إذا كان قاهراً باطشاً بالعقوبات منقباً عن عورات الناس و تعديد ذنوبهم شملهم الخوف و الذل و لاذوا منه بالكذب و المكر و الخديعة فتخلقوا بها و فسدت بصائرهم و أخلاقهم و ربما خذلوه في مواطن الحروب و المدافعات ففسدت الحماية بفساد النيات و ربما أجمعوا على قتله لذلك فتفسد الدولة و يجرب السياج و إن دام أمره عليهم و قهره فسدت العصبية لما قلناه أولاً و فسد السياج من أصله بالعجز عن الحماية و إذا كان رقيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم استناموا إليه و لاذوا به و أشربوا محبته و استماتوا دونه في محاربة أعدائه

¹⁹ الباب الأول من الكتاب الأول في العمران البشري على الجملة و فيه مقدمات، ص 48.

²⁰ الراوي: عائشة أم المؤمنين المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: 6927، درجة الحديث صحيح.

²¹ الراوي: عائشة أم المؤمنين المحدث: مسلم، المصدر: صحيح مسلم، الصفحة أو الرقم: 2594، درجة الحديث صحيح.

فاستقام الأمر من كل جانب و أما توابع حسن الملكة فهي النعمة عليهم و المدافعة عنهم فالمدافعة بما تتم حقيقة الملك و أما النعمة عليهم و الإحسان لهم فمن حملة الرفق بهم و النظر لهم في معاشهم و هي أصل كبير من التحجب إلى الرعية"²².

8- تطبيق الاحكام الشرعية في الحكم أساس البناء القوي

يرى ابن خلدون أنه من شروط الحكم وأهلية الحاكم لذلك، تطبيق الشريعة لتحقيق الخلافة والقيام على حماية الناس، فتراعى بذلك أسس القواعد وهي جلب المنافع ودرء المفاسد، لأن أحكام البشر تعجز عن ذلك، وأن مخالفة أحكام الشريعة والانصراف عن تطبيقها سيؤدي حتماً إلى زوال الخير ومنه توقع زوال المجتمع، وأشار إلى أن تجريب الحلول الغربية في شكل أنظمة اشتراكية أو رأسمالية في الدول الغربية والإسلامية لم تحل لها مشكلاتها الجسدية في التخلف في جميع نواحيه، بل نجم عنها مجتمعات هجينة في اقتصادها وثقافتها وسياستها وهويتها، فلا هي ناشدت التطور المزعوم، ولا حمت نفسها من الغزو الوافد المخالف في القيم والعادات والتقاليد، يقول: "فالسياسة و الملك هي كفالة للخلق و خلافة لله في العباد لتنفيذ أحكامه فيهم و أحكام الله في خلقه و عباده إنما هي بالخير و مراعاة المصالح كما تشهد به الشرائع، و أحكام البشر إنما هي من الجهل و الشيطان بخلاف قدرة الله سبحانه و قدره فإنه فاعل للخير و الشر معاً و مقدرهما إذ لا فاعل سواه فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالقدرة و أونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام الله في خلقه فقد تمهياً للخلافة في العباد و كفالة الخلق و وجدت فيه الصلاحية لذلك... و بالعكس من ذلك إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملتهم على ارتكاب المذمومات و انتحال الرذائل و سلوك طرقها فتفقد الفصائل السياسية منهم جملة و لا تزال في انتقاص إلى أن يخرج الملك من أيديهم و يتبدل به سواهم ليكون نعيماً عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك و جعل في أيديهم من الخير وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً و استقرى ذلك و تتبعه في الأمم السابقة تجد كثيراً مما قلناه و رسمناه"²³

9- التسليم بالضعف غاية للاستعباد والخضوع

يرى ابن خلدون أن الإنسان متى استسلم للضعف وسلم بقوة الآخر، فقد الكثير من إنسانيته وقارب على الفناء، ويحدث ذلك في الملك كما يحدث في الأمم والبشر عموماً، هذا التسليم يفضي إلى حال من الاستعباد والإذلال، وما أشار إليه ابن خلدون إنما هو تنبيه للإنسان باعتباره حراً وانه عبداً لله وحده، و الإسلام ابطل العبودية والرق بأشكالهما المختلفة، لكن آفات النفس في الإنسان تجعله يستعبد

²² الفصل الرابع والعشرون في أن إرهاب الحد مضر بالملك و مفسد له في الأكثر، ص 209.

²³ الفصل العشرون. في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة و بالعكس، ص 157-159.

أخاه الإنسان وتسخييره لخدمة مصالحه الشخصية، ومظاهره منتشرة في الحياة اليومية وهي تعبر عن مظاهر التخلف الفكري وطغيان الأنانية واللهث وراء الملذات، وصفة الضعف لا تبني الإنسان الفاعل العارف بحقوقه وواجباته.

يقول: "و فيه و الله أعلم سر آخر و هو أن الإنسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له و الرئيس إذا غلب على رئاسته و كبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه و ري كبده و هذا موجود في أخلاق الأناسي. و لقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة و أنها لا تسافد إلا إذا كانت في ملكة الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص و اضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء و البقاء لله وحده... فملكة الإسلام في العدل ما علمت و إنما هي طبيعة في الإنسان إذا غلب على أمر و صار آلة لغيره و لهذا إنما تدعن للرق في الغالب أمم السودان لنقص الإنسانية فيهم و قهرهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه أو من يرحو بانتظامه في ربة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عز كما يقع لممالك الترك بالمشرق و العلوج من الجلالقة و الإفرنجة فإن العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه و الرتبة باصطفاء الدولة."²⁴.

10- التعصب للحق فضيلة يقوم عليها المجتمع

يضع ابن خلدون قاعدة أخلاقية أساسية للتعامل الاجتماعي، فيرى أن الإنسان يتصف بصفات كثيرة منها الغضب المفضي للتعصب، ويرى أنها صفة سلبية وإيجابية في آن واحد، فهي سلبية إذا كان المقصود بها نصره الباطل وقيامه، وهي إيجابية إذا كان الغرض منها إقامة الحق ونصرتة، وهذا تنبيه إلى ترك العصبية والغضب المفضيين إلى الشر والعدوان على الناس والعدوان على القيم فتفسد الحياة وأخلاق الكثير من الناس بسببه، بمعنى أن تصرف الصفات التي نراها من وجهة نظرنا سلبية في سبل الخير لتكون إضافة للقيم الإيجابية.

يقول: "فلم يذم الغضب و هو يقصد نزع من الإنسان فإنه لو زالت منه قوة الغضب لفقد منه الانتصار للحق و بطل الجهاد و إعلاء كلمة الله و إنما يذم الغضب للشيطان و للأغراض الذميمة فإذا كان الغضب لذلك كان مذموماً و إذا كان الغضب في الله و لله كان ممدوحاً و هو من شمائله صلى الله عليه و سلم و كذا ذم الشهوات أيضاً ليس المراد إبطاها بالكلية فإن من بطلت شهوته كان نقصاً في حقه و إنما المراد تصريفها فيما أبيض له باشماله على المصالح ليكون الإنسان عبداً متصرفاً طوع الأوامر الإلهية و كذا العصبية حيث ذمها الشارع و قال: " لَنْ تَنْفَعَكُمُ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ " (الممتحنة: 3)، فإنما مراده حيث تكون العصبية على الباطل و أحواله كما كانت في الجاهلية و أن يكون لأحد فخر بها

²⁴ الفصل الرابع و العشرون في أن الأمة إذا غلبت و صارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء، ص 163، 164.

أو حق على أحد لأن ذلك مجال من أفعال العقلاء و غير نافع في الآخرة التي هي دار القرار فأما إذا كانت العصبية في الحق و إقامة أمر الله فأمر مطلوب و لو بطل لبطلت الشرائع إذ لا يتم قوامها إلا بالعصبية كما قلناه من قبل".²⁵

11- استغلال قوة الشباب قبل سطوة الضعف

ينبه ابن خلدون إلى المراحل العمرية في حياة الإنسان، فيقسمها إلى مرحلة القوة ثم مرحلة الضعف وفيها إشارة إلى ضرورة استغلال مرحلة الشباب لبناء حاضره ومستقبله، وهي مرحلة مهمة في البناء والتعمير لخصائص تميزها، وهي القوة والنشاط، وسرعة الإنجاز، ولنا خير مثال في السلف الصالح، وفي سنة رسول الله حيث كان يستثمر في الشباب أيما استثمار، فمنهم من جعله على رأس الجند، ومنهم من جعلهم أمراء، ومنهم من جعلهم دعاة، والمجتمع الذي يقصي شبابه فإنه يهيئهم للتأمر ضده أو شد الرحيل عنه وهو مجتمع غير مستقر في كل الأحوال. يقول ابن خلدون: "كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً و تبيين في المعقول والمنقول أن الأربعين للإنسان غاية في تزايد قواه و نموها و أنه إذا بلغ سن الأربعين و قفت الطبيعة عن أثر النشوء و النمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط".²⁶

12- التنظيم الغذائي لقهر الإسراف والتبذير:

هذه القاعدة من الناحية الاقتصادية، تفيد الإنسان من الناحية البدنية أي على المستوى الشخصي من حيث دفع المضرة عن البدن نظير الاستهلاك الكثير والمفرط، كما تفيد من الناحية الاجتماعية من حيث المحافظة على النظام الاقتصادي بين الطبقة المترفة والطبقة الفقيرة حيث توفر الأولى عن طريق الانتظام الغذائي ما يمكن أن تتماسك به الطبقة الثانية، وقد ركز ابن خلدون على الجانب الصحي مستفيداً من علوم الطب وعلم التصوف.

يقول: " فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن و البقل عوضاً عن الحنطة حتى صار له ديدناً فقد حصل له ذلك غذاء و استغنى به عن الحنطة و الحبوب من غير شك و كذا من عود نفسه الصبر على الجوع و الاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضيات فإننا نسمع عنهم في ذلك أخباراً غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها و السبب في ذلك العادة فإن النفس إذا ألفت شيئاً صار من جبلتها و طبيعتها لأنها كثيرة التلون فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدرج و الرياضة فقد حصل ذلك عادةً طبيعية لها و ما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حملت النفس عليه دفعة و

²⁵ الفصل الثامن و العشرون في انقلاب الخلافة إلى الملك، ص 224.

²⁶ الفصل الثامن عشر في أن الحضارة غاية العمران و نهاية لعمره و أنها مؤذنة بفساده، ص 411.

قطع عنها الغذاء بالكلية فإنه حينئذ ينحسم المعاء و يناله المرض الذي يخشى معه الهلاك و أما إذا كان ذلك القدر تدريجاً و رياضةً بإقلال الغذاء شيئاً فشيئاً كما يفعله المتصوفة فهو بمعزل عن الهلاك و هذا التدريج ضروري حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فإنه إذا رجع به إلى الغذاء الأول دفعةً خيف عليه الهلاك و إنما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدرج و لقد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً و صالماً و أكثر...²⁷

13- الاقتداء بالنظام الكوني لتحقيق التنظيم الإنساني المثالي.

وهي قاعدة تحت على النظر في المخلوقات الحية والمادية، من كائنات وجماد وأفلاك ونسق التنظيم الذي تتواجد فيها حيث تتكامل بينها بصورة سلمية متعاونة ومتآخية، لا تحاول الخروج عن محيط النظام المهيم لها، فتستقيم بذلك الدورة الطبيعية وفق ممتالية رياضية يكون الأول فيها هو سبب لتواجد الثاني وبقائه ويكون الأخير فيها هو سبب لبقاء الأول، وهذا ما يجب أن ينطبق في عالم الإنسان، فإنه باستغلال نظام تكوينه المادي والروحي يمكن ان يرقى إلى مرتبة اعلى سماها ابن خلدون في حالات "الملائكية" لأنه سيد الكون وهو الشاهد عليه بملكات تميزه عن سائر المخلوقات وهو بذلك يحافظ على نوعه بطريقة سلمية بعيدة عن الانحراف.

"و انتهى في تدريج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر و الروية ترتفع إليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس و الإدراك و لم ينته إلى الروية و الفكر بالفعل و كان ذلك أول أفق من الإنسان بعده و هذا غاية شهودنا ثم إنا نجد في العوالم على اختلافها آثاراً متنوعةً ففي عالم الحس آثار من حركات الأفلاك و العناصر و في عالم التكوين آثار من حركة النمو و الإدراك تشهد كلها بأن لها مؤثراً مبايناً للأجسام. فهو روحاني و يتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في و جودها و لذلك هو النفس المدركة و المحركة و لا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الإدراك و الحركة و يتصل بها أيضاً و يكون ذاته إدراكاً صرفاً و تعقلاً محضاً و هو عالم الملائكة فوجب من ذلك أن يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية إلى الملكية ليصير بالفعل من جنس الملائكة وقتاً من الأوقات في لحظة من اللحظات"²⁸.

14- ضرورة العطاء المستمر وتجنب الترف المفضي للهلاك

²⁷ المقدمة الخامسة في اختلاف أحوال العمران في الخصب و الجوع و ما ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر و أخلاقهم، ص 100.

²⁸ المقدمة السادسة في أصناف المدركين من البشر بالفطرة أو الرياضة و يتقدمه الكلام في الوحي و الرؤيا، ص 106، 107.

يلفت ابن خلدون فيما يتعلق بالعمران الحضري، الذي يتوفر على كل ضروريات الحياة وكمالياتها أنه مفسد للإنسان، فالترف الحاصل يجعل الإنسان يميل للكسل والخمول فتراجع فيه خصائص المروءة من شجاعة وسعي في شؤونه وشؤون الآخرين، ويتقاعس عن أداء واجباته، شيئاً فشيئاً، فيبدأ العمران بالتآكل والفساد وحتى السقوط مستقبلاً، هذه الإشارة أو اللفتة الطيبة من ابن خلدون تدعو الإنسان أن يكون على عطاء وعمل دائمين ويكون في خدمة بيئته وعلى تماس إيجابي مع محيطه، ويساعده في ذلك الالتزام الاخلاقي بما يجلب له المنافع ويدفع عنه المضار، ويرى ابن خلدون ان التطور الحاصل في الحضرة بما يوفره من امن واستقرار وكل متطلبات الحياة إن لم يشرك كل أفرادها في تطوره والحفاظة عليه فإنه سائر إلى السقوط بفعل الطوارئ أو الازمات التي قد تفاجئه.

يقول: "و اعتبر به أن غاية العمران هي الحضارة و الترف و أنه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد و أخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للحيوانات. بل نقول إن الأخلاق الحاصلة من الحضارة و الترف هي عين الفساد لأن الإنسان إنما هو إنسان باقتداره على جلب منفعه و دفع مضاره و استقامة خلقه للسعي في ذلك. و الحضري لا يقدر على مباشرته حاجاته أما عجزاً لما حصل له من الدعة أو ترفاً لما حصل من المربي في النعيم و الترف و كلا الأمرين ذميم. و كذلك لا يقدر على دفع المضار و استقامة خلقه للسعي في ذلك. و الحضري بما قد فقد من خلق الإنسان بالترف و النعيم في قهر التأديب و التعلم فهو بذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه. ثم هو فاسد أيضاً غالباً بما فسدت منه العوائد و طاعتها في ما تلونت به النفس من مكائنها كما قرناه إلا في الأقل النادر. و إذا فسد الإنسان في قدرته على أخلاقه و دينه فقد فسدت إنسانيته و صار مسخاً على الحقيقة. و بهذا الاعتبار كان الذين يتقربون من جند السلطان إلى البداوة و الخشونة أنفع من الذين يتربون على الحضارة و خلقها. موجودون في كل دولة. فقد تبين أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران و الدولة"²⁹.

15- ضرورة السعي للكسب والعمل لتحصيل الحياة الكريمة

والعمل لكسب ما يحتاج إليه الإنسان من مال ورزق لحصول الحياة الكريمة مطلب شرعي وأساسي، وقد حث الله عزوجل عله في آيات عديدة، كما حث عليه رسول الله صلى عليه وسلم في أحاديثه ولا يمكن تصور حضارة أو مجتمع من غير سعي أو عمل شريف، والحديث عن السعي إنما هو لفت الانتباه إلى أن الفقر والبطالة من صور المجتمعات المتخلفة وهي صور للإنسان المتقاعس الذي ينظر إلى ما في يد غيره ويتمنى لو كان ملكه، فالكثير من الناس لا تسعى وتقتصر في تحصيل الرزق احتقاراً لبعض الأعمال أو ترفعا عنها وتبرير ذلك بتقصير المسؤولين في توفير الوظيفة، والناظر في حال

²⁹ الفصل الثامن عشر في أن الحضارة غاية العمران و نهاية لعمره و أنها مؤذنة بفساده، ص 414.

المجتمعات يرى من الوظائف الشاغرة ما يلائم طبيعة الإنسان، فثمة أراضي مهملة وثمة صنائع متروكة لانها قد لا تذر الريح السريع بنظر الإنسان المتخلف.

يقول ابن خلدون عن ضرورة السعي في الكسب "إعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يقوته و يمونة في حالاته و أطواره من لدن نشوءه إلى أشده إلى كبره و الله الغني و أنتم الفقراء و الله سبحانه خلق جميع ما في العالم للإنسان و امتن به عليه في غير ما آية من كتابه فقال: "وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ" (الجنات:13)، و يد الإنسان مبسطة على العالم و ما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف، و أيدي البشر منتشرة فهي مشتركة في ذلك، و ما حصل عليه يد هذا امتنع عن الآخر إلا بعوض، فالإنسان متى اقتدر على نفسه و تجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكسب لينفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته و ضروراته بدفع الأعواض عنها. قال الله تعالى: "فَابْتِغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ" (العنكبوت:17)، و قد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة و أمثاله. إلا أنها إنما تكون معينة و لا بد من سعيه معها كما يأتي فتكون له".³⁰

وأوجه السعي عديدة وأماكن تحصيله متنوعة يقول: "و منها السعي في المعاش و الاعتماد في تحصيله من وجوهه و اكتساب أسبابه لما جعل الله من الافتقار إلى الغذاء في حياته و بقاءه و هداه إلى التماسه و طلبه فإن الله تعالى "أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" (طه:50) و منهما العمران و هو المساكن و المنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير و اقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما نبينه و من هذا العمران ما يكون بدوياً و هو الذي يكون في الضواحي و في الجبال و في الحلال المنتجة في القفار و أطراف الرمال و منه ما يكون حضرياً و هو الذي بالأمصار و القرى و المدن والمدر للاعتصام بها و التحصن بجدرانها و له في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروضاً ذاتياً"³¹

المحور الرابع: القيم المادية والمعنوية المرتبطة بالقواعد.

إن أهمية دراسة القيم لا تقف داخل نطاق الفكر الفلسفي وحده بل تتعداه، فالقيم من المفاهيم الجوهرية في جميع ميادين الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وهي تمس العلاقات الإنسانية بكافة صورها، ذلك لأنها ضرورة اجتماعية، فهي تتغلغل في الأفراد في شكل اتجاهات، ودوافع، وتطلعات

³⁰ الفصل الأول في حقيقة الرزق و الكسب و شرحهما و أن الكسب هو قيمة الأعمال البشرية ، ص421، 422.

³¹ المقدمة الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخليقة و ما يعرض فيها من البدو و الحصر و التغلب و الكسب و المعاش و الصنائع و العلوم و نحوها و ما لذلك من العلل و الأسباب، ص 45.

وتظهر في السلوك الظاهري الشعوري واللاشعوري، وفي المواقف التي تتطلب ارتباط هؤلاء الأفراد تعبر القيم عن نفسها في قوانين وبرامج التنظيم الاجتماعي والنظم الاجتماعية.³²

ويضع القرآن الكريم منظومة القيم ولأهميتها في إطار من القداسة، ويعتبرها الطاقة الكبرى لترقية الإنسان والمجتمع والعالم وضبط حركته على الأرض، والترقية هنا تشمل ضمير الفرد وضمير الجماعة أيضا كما تشمل أيضا دوافع العمل والحركة لبناء الذات وعمارة الأرض وتحسينها من الانحراف، وبهذا تتميز منظومة القيم الإسلامية عن غيرها من المنظومات القيمية البشرية، بالثبات، فالقيمة ثابتة بذاتها ومتحركة في إطار الفهم والتطبيق، ولا يمكن لأي مجتمع أن يسير للأمام من دون حصانة قيمية، ولعل الإصابات والتحويلات التي طرأت على منظومة القيم³³ هي من أسباب السقوط في الآفات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية.

إن تحلي الإنسان عن قيمه يفقده معنى وجوده في مجتمعه وفي الحياة، وأن ما تحض عليه الديانات السماوية هو أن يكون الفرد هو ذاته أينما كان و أن يجتهد في صنع القيم الإيجابية ويعمل على توكيدها، وعند فقدان هذه القيم يكون قد فقد هويته الذاتية، إذ أن الحكم الأخلاقي واتخاذ القرار يجب أن يكونا متأصلين في قدرة الإنسان على التقييم، وبمقدار ما يحمل المرء في نفسه وتكوينه من قوة وأصالة فإنه يتمكن من تحديد معالم الواقع الذي يعيشه والذي تنعكس فيه القيم، فمن واقعه هذا يتلقى المسببات الأساسية التي تتيح له نسج مقومات القيم الراسخة، ومن خلال ذلك يستطيع أن يتعلم حدود مسؤوليته الأخلاقية والاجتماعية، وبممارسة الفرد نشاطه فإنه يتسنى له أن يختار طريقة تحديد وتأکید ما يسعى إليه من أهداف تحكم وعيه الإدراكي، مما يؤهله في المآل من استبان السبل المفضية إلى كيفية بناء القيم الإيجابية وتعزيز مكانتها.³⁴ تدفع هذه القيم، الإنسان إلى تغيير واقعه وحاله ليتطلع إلى الكمال المنشود، فهو المخلوق الوحيد الذي يتميز عن غيره من الكائنات بالشعور الواعي والإدراك العاقل بما ينبغي أن يفعله وما ينبغي عليه فعله.³⁵

ووقع اختياري على بعض من القيم التي جاءت في سياقات مختلفة ذكر فيها الإنسان، وقد وردت في فصول مختلفة وتكررت بشكل واضح، وقسمتها إلى قيم التحلي وهي القيم الإيجابية، وقيم التحلي وهي القيم السلبية

³² فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980 ص 16.

³³ سعاد جبر سعيد، القيم العالمية وأثرها في السلوك الإنساني، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، 2008، ص 31.

³⁴ المرجع السابق، ص 35.

³⁵ صلاح الدين بسيوني: القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990، ص 5.

1- قيم التحلي

- الكسب:

وهي قيمة أساسية في العمل، وتتطلب هذه القيمة السعي الحثيث والجهد لتوفير متطلبات الحياة المادية والمعنوية الكمالية منها والضرورية، والكسب طرق وأنواع، فإما يكون باخذه من يد الغير وانتزاعه بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرماً، أو يكون برمي الحيوانات من البر والبحر ويسمى اصطياداً، أو بتسخير الحيوانات الداجنة واستخراج ما ينفع منها كاللبن والعسل والحزير، أو اختراق مهنة معينة كالتجارة والخياطة والحياكة، والفلاحة وكلها أوجه طبيعية للعيش³⁶.

يشير ابن خلدون إلى عوامل خارجية تؤثر في قيمة الكسب فتزيدها أو تنقص منها، وهي الجاه والتواضع والترفع، فصاحب الجاه وهو صاحب النفوذ والذي يملك سلطة فعلية تؤهله لمساعدة من يريد أن يرضى عنهم، فإما أن يجلب لهم منفعة تزيد في كسبهم أو يدفع عنهم مضرة تزيد أيضاً في كسبهم، ولا يحصل ذلك إلا بالتملق والخضوع حتى تفتح قلوب أهل الجاه لمطالب أصحاب المطاعم والمطامح³⁷، يقول ابن خلدون: "و إنما يبذل لمن تحت يديه فيكون بذله بيد عالية و عزة فيحتاج طالبه و مبتغيه إلى خضوع و تملق كما يسأل أهل العز و الملوك و إلا فيتعذر حصوله. فلذلك قلنا إن الخضوع و التملق من أسباب حصول هذا الجاه المحصل للسعادة و الكسب و إن أكثر أهل الثروة و السعادة بهذا التملق و لهذا نجد الكثير ممن يتخلق بالترفع و الشمم لا يحصل لهم غرض الجاه فيقتصرون في التكسب على أعمالهم و يصيرون إلى الفقر و الخصاصة"³⁸.

- التعليم:

قيمة مهمة جداً في تاطير الإنسان المتحضر، فهي عملية تصاحبه منذ السنوات الأولى من طفولته وتستمر معه، وقد كتب الكثير من التربويين³⁹ عنها مبيين أهميتها للفرد والمجتمع، وطرائقها المتعددة والتي تساعد على إدارة العلاقة التربوية التعليمية بين الأطراف المساهمة في ذلك، حيث تتنوع بين الطرق الديمقراطية والمشاركة، والطرق الاستبدادية، ويشير ابن خلدون إلى العوائق التي تحول دون الفهم الجيد لما

³⁶ الفصل الثاني، في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه، ص 424.

³⁷ محمد فاروق النبهان، مرجع سابق، ص 231-232.

³⁸ الفصل السادس، في أن السعادة والكسب إنما يحصل غالباً لاهل الخضوع والتملق وإن هذا الخلق من أسباب السعادة، ص 433.

³⁹ مكفارلند، علم النفس والتعليم، ترجمة عبد العلي الجسماني وآخرون، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1994، ص 281، و محمد مزيان، قراءات في طرائق التدريس، جمعية الإصلاح الاجتماعي والتربوي، باتنة، 1994، ص 20، علي أسعد وطفة، علي جاسم الشهاب، علم الاجتماع المدرسي، المؤسسة الجامعية، بيروت لبنان، 2004، ص 100، منير المرسي سرحان، في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 199.

يتم تقديمه ابتداء من الإخفاق في اختيار مصادر التعليم، إلى الطرائق الضرورية للعملية التعليمية والعلاقات السائدة في الفصل التعليمي.

فيرى ابن خلدون انه لا بد من التركيز على المضاف او الجديد في مصادر التعليم، لان المصادر المتشابهة والمتعددة لا تضيف للمتعلم شيئاً ما عدا التكرار وصعوبة الاستعاب، ويمثل بذلك في التشابه الحاصل بين الشروحات الفقهية على الكتب المدونة في فقه مالك، وكذلك علم العربية وثال ذلك ما جمع حول كتاب سبويه، يقول: " و يمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بالكتب المدونة مثلاً و ما كتب عليها من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس و اللخمي و ابن بشير و التنبهات و المقدمات و البيان و التحصيل على العتبية و كذلك كتاب ابن الحاجب و ما كتب عليه. ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية و البغدادية و المصرية و طرق المتأخرين عنهم و الإحاطة بذلك كله و حينئذ يسلم له منصب الفتيا و هي كلها متكررة والمعنى واحد. و المتعلم مطالب باستحضار جميعها و تمييز ما بينها والعمر ينقضي في واحد منها. و لو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير و كان التعليم سهلاً و مأخذه قريباً و لكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالتبيعة التي لا يمكن نقلها و لا تحويلها"⁴⁰.

كما يرى أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم تضر بالتعليم، حيث تعتمد هذه الاختصارات إلى الاضرار بالالفاظ ومنه الاخلال بالبلاغة والعسر على الفهم ومن ذلك ما قام به ابن مالك في العربية وابن الحاجب في الفقه والحونجي في التعليم⁴¹.

ويقترح ابن خلدون طرقاً للاستفادة من تعليم العلوم، فيرى ضرورة تلقينها على التدرج، حيث تلقى المسائل من كل باب في العلم المراد تحصيله أولاً ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال، مع مراعاة قوة عقل المتعلم واستعداده لقبول ما يرد عليه، ثم يرجع إلى موضوع العلم نفسه فيرفعه إلى التلقين ويستوفي الشرح والبيان ويذكر له الخلاف ثم يوضح كل مبهم وعويص، والطريقة في مجملها ثلاث تكرارات، او اقل بحسب قدرة المتعلم. وغن لم تراعى هذه الطرق فإن المتعلم سيكل عن الاستفادة منها وينحرف عن قبولها ويتمادى في هجرها.

وينصح ابن خلدون المعلم بضرورة عدم الاطالة في العلم او الفن الواحد وتطويل حصصه او جلساته فقد يكون سبباً على النسيان وانقطاع مسائل الفن الواحد عن بعضها البعض، هذا بالإضافة على تجنب الخلط بين علمان فيشكل الامر على المتعلم باشغال ذهنه وانصرافه عن كل منها⁴².

⁴⁰ الفصل السابع والعشرون، في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل، ص 587.

⁴¹ الفصل الثامن والعشرون في أن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم، ص 588.

هذه القيمة تحصل عند الإنسان من غير استخدام القوة او العقاب، لان ذلك بنظر ابن خلدون " يذهب الباس عن المتعلم و أما إذا كانت الأحكام تأديبية و تعليمية و أخذت من عند الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لمرباه على المخافة و الانقياد فلا يكون مدلاً ببأسه و لهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو أشد بأساً ممن تأخذهم الأحكام و نجد أيضاً الذين يعانون الأحكام و ملكتها من لدن مرباهم في التأديب و التعليم في الصنائع و العلوم و الديانات ينقص ذلك من بأسهم كثيراً و لا يكادون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه و هذا شأن طلبة العلم المنتحلين للقراءة و الأخذ عن المشايخ و الأئمة الممارسين للتعليم و التأديب في مجالس الوقار و الهيبة فيهم هذه الأحوال و ذهابها بالمنعة و البأس. و لا تستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين و الشريعة و لم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلي عليهم من الترغيب و الترهيب و لم يكن بتعليم صناعي و لا تأديب تعليمي إنما هي أحكام الدين و آدابه المتلقاة نقلاً يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان و التصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت و لم تحدها أظفار التأديب و الحكم قال عمر رضي الله عنه: " من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله " ⁴³ ، و على قدر جودة التعليم و ملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة و حصول ملكته ⁴⁴.

- التعاون:

من الحقائق المسلم بها ان الإنسان لا يستطيع ان يعيش بمفرده، فهو يحتاج إلى بني جنسه لتقوم حياته و تتحقق الغاية من وجوده، والتعاون قيمة عملية هامة حث عليها الإسلام، فهي تهدف إلى حفظ المال والنفس والدين، وبها تتحقق الحياة الكريمة ، ومظاهر التعاون كثيرة وبها يتميز الإنسان الراقى ويسعى بها إلى تحقيق أهداف نبيلة، كقضاء حاجات اترابه، والسعي في توفير الضروري من الحياة.

يقول ابن خلدون: "فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة و لا تفي قدرته أيضاً باستعمال الآلات المعدة لها فلا بد في ذلك كله من التعاون عليه بإبناء جنسه و ما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت و لا غذاءً و لا تتم حياته لما ركبته الله تعالى عليه من الحاجة إلى الغذاء في حياته و لا يحصل له أيضاً دفاع عن نفسه لفقدان السلاح فيكون فريسة للحيوانات و يعاجله الهلاك عن مدى حياته و يبطل نوع البشر و إذا

⁴² الفصل التاسع والعشرون، في وجه الصواب في تعليم العلوم وطرق الافادة منها، ص 589، 590.

⁴³ الفصل السادس في أن معاناة أهل الحضرة للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم 139.

⁴⁴ الفصل السادس عشر في أن الصنائع لا بد لها من العلم ، ص 443.

كان التعاون حصل له القوت للغذاء و السلاح للمدافعة و تمت حكمة الله في بقائه و حفظ نوعه فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني⁴⁵.

ويقول: "لأن النوع الإنساني لا يتم وجوده و بقاؤه إلا بالتعاون بين إبنائه على مصالحهم، لأنه قد تقرر أن الواحد منهم لا يتم وجوده و إنه و إن ندر ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاؤه. ثم إن هذا التعاون لا يحصل إلا بالإكراه عليه لجهلهم في الأكثر بمصالح النوع و لما جعل لهم من الاختيار و أن أفعالهم إنما تصدر بالفكر و الروية لا بالطبع⁴⁶.

2- قيم التخلي

- الاستبداد:

وله أوجه، احدها يقع عند عجز الدولة عن إدارة واحتواء اتباعها، فيظهر الاستبداد فيهم، والثاني يقع من حاشية الملك الذين تنسد لهم إدارة امور الرعية، فيستبدون بهذا التكليف في إدارة حكم الدولة، والثالث، يقع في استبداد الملك على ولي العهد حيث يتم عزله عن الناس ليتخلق بأخلاق وليه فيكون نسخة منه.

يقول عن الوجه الاول" هو الذي من جهة المال و الجباية، و يحصل العجز و الانتقاض بوجود الخللين. و ربما تنافس رؤسائهم فتنزعوا و عجزوا عن مغالبة المجاورين و المنازعين و مدافعتهم، و ربما اعترض أهل الثغور و الأطراف بما يحسبون من ضعف الدولة وراهم، فيصيرون إلى الاستغلال و الاستبداد بما في أيديهم من العمالات، و يعجز صاحب الدولة عن حملهم على الجادة فيضيق نطاق الدولة عن كانت انتهت إليه في أولها"⁴⁷

ويقول عن الوجه الثاني:" و أن الحل و الربط و الأمر و النهي و مباشرة الأحوال المملوكية و تفقدها من النظر في الجيش و المال و الثغور إنما هو للوزير و يسلم له في ذلك إلى أن تستحكم له صبغة الرئاسة و الاستبداد و يتحول الملك إليه و يؤثر به عشيرته و إبنائه من بعده"⁴⁸.

يقول في الوجه الثالث:" و ذلك أن أهل الدولة و خواص الملك إذ نصبوا الإبناء من الأعقاب و حاولوا الاستبداد عليهم فأول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنة بطانة إبنه و خواص أوليائه يوهمه

45 الباب الأول من الكتاب الأول في العمران البشري على الجملة و فيه مقدمتان ص46.

46 الفصل السادس في أن السعادة و الكسب إنما يحصل غالباً لأهل الخضوع و التملق و أن هذا الخلق من أسباب السعادة ، ص 432.

47 الفصل السابع واربعين في كيفية طروق الخلل للدولة، ص 326، 327.

48 الفصل الحادي والعشرون، فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه، ص 205.

أن في مباشرتهم إياه خرق حجاب الهيبة و فساد قانون الأدب ليقطع بذلك لقاء الغير و يعودده ملابسة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواه إلى أن يستحكم الاستيلاء عليه فيكون هذا الحجاب من دواعيه و هذا الحجاب لا يقع في الغالب إلا أواخر الدولة كما قدمناه في الحجر و يكون دليلاً على هرم الدولة و نفاد قوتها و هو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم لأن القائمين بالدولة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة و ذهاب الاستبداد من أعقاب ملوكهم لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك و خصوصاً مع الترشيح لذلك و حصول دواعيه و مبادئه".⁴⁹

إن الاستبداد يعوق الحريات الفردية والجماعية، في تطوير البنى المختلفة للمجتمعات والحضارات، وهو يقتل الإبداع والإنتاج، فيحول دون سير عجلة النمو، وهذا ما نلاحظه في مختلف المؤسسات حيث تسيطر القلة في التسيير وعن طريق الاستبداد تعيق عملية الحركة والفكر المنتجين، لتحتفظ بالأفكار التقليدية التي عافها الزمن.

- الظلم:

أفرد له ابن خلدون فصلاً بعنوان "أن الظلم مؤذن بخراب العمران" وذكر له أنواعاً، ومنها الاعتداء على الناس في أموالهم مما يضعف الكسب والسعي في ذلك، وهما أساس ازدهار العمران، وبضعفهما وذهابهما يفسد العمران من حيث كساد أسواقه، والاقلال من ساكنه واختلال الدولة والسلطان، ويورد ابن خلدون للتمثيل على ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس في إنكار ما كان عليه الملك من الظلم والغفلة.⁵⁰

ويعرض ابن خلدون لصور الظلم والتسلط على أموال الناس، كاشتراء ما بين أيديهم بأبخس الأثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الأثمان على وجه الغصب والاكراه، ويكون ذلك في جل السلع مما يؤدي على كسادها وتعطيل الأسواق ويبطل معاش الرعايا ويفسد عمران المدينة ويتطرق غليها الخلل.⁵¹

يقترح ابن خلدون الرجوع إلى الحل الشرعي كعلاج للظلم في المعاملات فيقول: "و من أجل هذه المفساد حظر الشرع ذلك كله و شرع المكايسة في البيع و الشراء و حظر أكل أموال الناس بالباطل سدا لأبواب المفساد المفضية إلى انتقاض العمران بالهرج أو بطلان المعاش واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة و السلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال فتكثر نفقاتهم و يعظم الخرج و لا يفي به الدخل على القوانين المعتادة يستحدثون ألقاباً و وجوهاً يوسعون بها الجباية

⁴⁹ الفصل الرابع واربعون، في أن الحجاب كيف يقع في الدول وفي أنه يعظم عند الهرم، ص 322.

⁵⁰ الفصل الثالث والاربعون، في ان الظلم مؤذن بخراب العمران، 316، 317.

⁵¹ المقدمة، ص 320.

ليني لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد و الخرج بسببه يكثر و الحاجة إلى أموال الناس تشتد و نطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تمحي دائرتها ويذهب برسمها و يغلبها طالبها"⁵²

ويقع الظلم أيضا من البشر أنفسهم، إذ يستعدي بعضهم بعضا ولا يدفع ذلك الظلم والعدوان إلا الدولة او الحكام، أو العلاقات القوية التي تجمع الناس في مجتمعاتهم والتي هي اشبه بالسياج والاسوار التي تحيط بالمدن او القرى، كما يدفع الظلم الفضائل والاخلاق التي يتحلى بها الإنسان او ما يسمى بالوازع الاخلاقي او العفة⁵³.

المحور الرابع:الإسناد المعرفي لابن خلدون في تناوله للإنسان:

المقصود بالإسناد المعرفي، مختلف المعارف التي استعان بها ابن خلدون في تأليف المقدمة، وهي معارف عديدة متنوعة بحسب الأبواب والفصول التي وردت فيها، وقد عرضنا بعضها بما يتماشى وعنوان البحث.فإن خلدون يستعين بالقرين الكريم والسنة النبوية في معرض حديثه عن الإنسان وما يتعلق به من أحوال وخصائص، كما يستعين بمختلف الكتب المؤلفة في مجالات شتى، ويجعل من الرحلات التي قام بها في مشرق الارض ومغربها ولقاءاته المتعددة مع أهل البلاد حكاما كانوا او علماء مرجعا أساسيا للكتابة. وعليه جاءت المقدمة ثرية من حيث المادة وكم المعلومات التي يستعين بها الباحثون المعاصرون في تقديم مسائل وأبحاث هامة متخصصة.

1- النص القرآني:

يستشهد ابن خلدون بآي القرآن الكريم، في سياقات عدة، ومنها خلق الإنسان ومنها آداب الحاكم في التعامل مع الرعية، وأهمية الموالاة والتلاحم لتحقيق الوفاق وتجنب الافتراق، وضرورة التحلي عن الرذائل والمذمومات للحفاظ على العمران ومظاهر تحضره.

يذكر في معرض حديثه عن خلق الإنسان وإتقان الخلق بالآية: "الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى" (طه: 50) ، ويستشهد في الحكم وآداب التعامل مع الأفراد، ومخالفة هذه الآداب بالآية "إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ" (ابراهيم: 19، 20)، و يسوق في سنة التدافع ووجوب وجود قوى لتسيير شؤون الناس والقيام عليها الآية: " وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ" (البقرة: من الآية 251) ، ويورد في وعيد الله بإهلاك المفسدين من الحكام والملوك الذين يرتكبون السوء والمحرمات ويظلمون الناس واستبدالهم بأخرين الآية: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا"

⁵² المقدمة، ص321.

⁵³ الفصل السابع، في ان سكنى البدو لا تكون إلا للقبائل أهل العصبية، ص 140، 141.

(الإسراء:16) ، ويورد أخرى في السياق نفسه "وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ" (الرعد: 11) ويستدل في حديثه عن ذم الملك وتحذيرهم من ظلم الناس و نبذ الفرقة والخلاف والجنوح عن الطريق والتذكير بان الدنيا مطية للآخرة بقوله تعالى: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ" (الحجرات: 13)

ويوضح عند ذكر الإنسان وضعفه بالرغم من القوى الادراكية والمادية التي يتمتع بها، أنه يبقى مفتقرا لله عزوجل في حالاته و أطواره من لدن نشوءه إلى أشده إلى كبره"فيورد الآية: "وَاللَّهُ الْعَظِيمُ وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ" (محمد:38)، ويذكر في معرض حديثه عن النعم التي خلقها الله للإنسان وسخرها له الآية: "وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُتَفَكَّرُونَ" (الجاثية:13)، ويستشهد أيضا "فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ" (العنكبوت: 17) عند الحديث عن السعي والذي يكون بأقدار الله تعالى و إلهامه.وفي معنى المفاضلة بين البشر في الجاه والسلطان والتكامل يذكر قوله تعالى: "وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ سُلْخَاتًا وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ" (الزخرف:32) ، وفي حث الإنسان على التوجه الى الله وتوحيده لأنه الأعلم بمصالح العباد في الدنيا والآخرة يورد الآية "وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا" (الاسراء:85).

2- النص السني:

يستدل ابن خلدون في معرض حديثه عن الإنسان وأحواله وصفاته المتعلقة به بنصوص السنة النبوية، وهي كثيرة في المقدمة سقت البعض منها على سبيل التمثيل لا الحصر.

يورد ابن خلدون في حديثه عن نسب الإنسان الذي ينتهي إلى أربعة آباء على حد علمه، قوله صلى الله عليه و سلم "الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام"⁵⁴، ويرى ابن خلدون ان الإنسان لا يستطيع ان يثبت نسبه إلا الأولون والظاهر أن ما ذهب إليه ابن خلدون إنما هو تأكيد على أن الإنسان ليس بنسبه إنما بأخلاقه وما يقدمه من عمل.

ويذكر في حديثه عن خصال الملك او الحكم أنه يجب ان يتحلى بالرفق الذي يتحجب به للرعية أو الجماهيرما قاله صلى الله عليه و سلم "سيروا على سير أضعفكم"⁵⁵، ويرى أنه يجب استخدام هذه الخصلة بذكاء لانها لا تصلح في كل الاحوال، فالناس مختلفون في طباعهم وصفاتهم.

ويرى ابن خلدون ان تصرف العصبية التي هي اساس الحكم في موضعها الإيجابي، فتصرف في الحق لا غير وإن صرفت عكس ذلك فهي مذمومة ومنبوذة، وهذا وفقا لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ

⁵⁴ الراوي: عبدالله بن عمر المحدث: البخاري، المصدر، صحيح البخاري ، الصفحة أو الرقم: 3382، درجة الحديث، صحيح

⁵⁵ الراوي: - المحدث: السخاوي ، المصدر، المقاصد الحسنة ،الصفحة أو الرقم: 294، درجة الحديث، لا أعرفه بهذا اللفظ.

الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية ، وفخرها بالآباء : مؤمنٌ تقِيٌّ ، أو فاجرٌ شقيٌّ ، أنتم بنو آدم ، وآدمُ من ترابٍ".⁵⁶

يتصور ابن خلدون أن عمل الإنسان يجب ان يكون محدد الوجهة ، وان يصرف في أغراض الحق جهد الاستطاعة حتى تصير المقاصد كلها حقاً لقوله صلى الله عليه وسلم "فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يُصيبها ، أو امرأةٍ يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه".⁵⁷

يشير ابن خلدون في معرض حديثه عن الرزق، أنه ماعادت منفعتة على العبد وتحققت به مصالحه وحاجاته، يقول صلى الله عليه و سلم: "وإنما مألُك ما أكَلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت".⁵⁸ وفي باب واسع يتحدث ابن خلدون بدقة متناهية عن طرق تحصيل الرزق وأسباب تحصيله.

يتحدث ابن خلدون عن صناعة الطب، باعتبارها صناعة ضرورية تعمل على حفظ الأبدان، ويرى ان اصل الداء هو في طبيعة الأغذية وان بيته هو المعدة، ويستدل بالحديث، "المعدة بيتُ الداءِ والحمية رأسُ الدوائِ"⁵⁹ ويرى في ان العلاج هو الحمية أي النسبة من الجوع، أي التقليل من الطعام.

أشير أنه وبعد تخريج الأحاديث المذكورة، ان ابن خلدون يعتمد على ما صح من الروايات في أحيان كثيرة، ومع هذه فهو يعتمد أيضا الغريب من الروايات أو ما لم يرو عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا مما يقلل من أهمية بعض السياقات التي يعتني فيها ابن خلدون بالنصوص السننية، وكان بالامكان الاستغناء عن ذلك والاستعانة بالعلوم التي اهتم بها ومنا الطب والهندسة والكيمياء والفلك...

3- التراث المعرفي:

يشير ابن خلدون في معرض حديثه عن الإنسان وقواعد ضياغة تحضره والقيم المتعلقة بها، إلى عدة كتب تتنوع بتنوع المجال العلمي التي تنتمي إليه ومنها، كتاب جالينوس، "منافع الأعضاء" في مجال الطب، وكتاب محمد بن أبي زيد "أحكام المعلمين و المتعلمين" في طرق التعليم، وكتاب "الأغاني في أخبار عزيز الغواني" في الحديث عن العرب ونسبهم وملكاتهم اللغوية.

⁵⁶ الراوي: أبو هريرة المحدث: ابن تيمية ،المصدر: اقتضاء الصراط المستقيم ، الصفحةأوالرقم: 247/1، درجة الحديث، صحيح

⁵⁷ الراوي: عمر بن الخطاب المحدث، البخاري، المصدر، صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم: 2529، درجة الحديث،صحيح.

⁵⁸ الراوي: عبدالله بن الشخير المحدث: الألباني ، المصدر: صحيح النسائي ، الصفحة أو الرقم: 3615،درجة الحديث،صحيح.

⁵⁹ الراوي: - المحدث: الزركشي (البدر) ، المصدر: اللآلئ المشورة ، الصفحة أو الرقم: 145، درجة الحديث،صحيح.: لا أصل

له عن النبي صلى الله عليه وسلم

و كتاب "التكملة" لابن الأبار⁶⁰ عند التعريف بإبن فروخ الفيرواني القاسي الأندلسي من أصحاب مالك رضي الله عنه.

ومنها كتب ألّفت في الورع و محاسبة النفس ككتاب "الرسالة" للقشيري⁶¹ و كتاب "عوارف المعارف" للسهرودي⁶²، ومنها كتاب الإحياء للغزالي الذي دون فيه أحكام الورع و الاقتداء ثم بين آداب القوم وسننهم و شرح اصطلاحاتهم في عباراتهم و صار علم التصوف في الملة علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط.

و من أحسن التآليف في الهندسة، كتاب المحسّطي⁶³ وقد اختصره الأئمة من حكماء الإسلام كما فعله إبن سينا و أدرجه في تعاليم الشفاء. و لخصه إبن رشد الأندلس و إبن السمح⁶⁴ و إبن أبي الصلت⁶⁵ في كتاب الانتصار. و لإبن الفرغاني⁶⁶ هيئة ملخصة قريبا و حذف براهينها الهندسية، وكتب

⁶⁰ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن القضاعي البلنسي المعروف بابن الأبار (1199 - 1260م، 595 هـ - 658 هـ)، مؤرخ وشاعر أندلسي ولد بطنسية بالأندلس، أشهر مؤلفاته، التكملة لكتاب الصلاة، القاموس الإسلامي، أحمد عطية الله - المجلد الأول، ص6. نشر مكتبة النهضة المصرية

⁶¹ عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة أبو القاسم القشيري إمام الصوفية، وصاحب الرسالة القشيرية في علم التصوف، ومن كبار العلماء في الفقه والتفسير والحديث والأصول والأدب والشعر، (376 هـ - 465 هـ)، الملقب بـ "زين الإسلام".

⁶² شهاب الدين أبو حفص عمر السهروردي البغدادي، أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن السابع الهجري، ومؤسس الطريقة السهروردية الصوفية، صاحب كتاب "عوارف المعارف". وصفه الذهبي بـ «الشيخ الإمام العالم القدوة الزاهد العارف المحدث شيخ الإسلام أوحد الصوفية»، الذهبي سير اعلام النبلاء، ج 22، ص 377.

⁶³ هو كتاب في الفلك والرياضيات وألفه العالم الإغريقي بطليموس عام 148م في الإسكندرية ويعتقد أنه أقدم كتاب معروف في الفلك. ترجمه للعربية حنين بن إسحاق ومن الترجمة العربية تم ترجمة الكتاب إلى اللغة اللاتينية ثم إلى بقية اللغات الأوروبية لذا فإن اسم الكتاب العربي هو المستخدم في التراجم حيث يسمى الكتاب (Almagest) من كلمة المحسّطي العربية وليس الاسم اليوناني الأصلي. تم تأليف العديد من الكتب العربية والأوربية في دعم أو نقد وتصحيح المحسّطي.

⁶⁴ أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس الغرناطي. كان بالأندلس في زمن الحكم، وكان محققًا لعلم الهندسة والعدد، متقدمًا في علم الهيئة، وكانت له مع ذلك عناية بالطب وله تأليف حسان، منها كتاب المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب إقليدس، ومنها كتاب ثمار العدد المعروف بالمعاملات، وكتاب طبيعة العدد، وكتابه الكبير في الهندسة الذي تقصى فيه أجزاءها من الخط المستقيم والمتقوس والمنحني وغير ذلك، توفي بغرناطة سنة ٤٢٦هـ هجريًا. أعلام المهندسين في الإسلام، أحمد تيمور باشا، كلمات عربية للترجمة والنشر، جمهورية مصر العربية - القاهرة، 2011، ص22.

⁶⁵ أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت وكنيته أبو الصلت، وكان عالما في الفلك والرياضيات والموسيقى، ولد في بلدة دانية وهي قصبه الناحية الشمالية الشرقية من كورة القفت، شرقي الأندلس عام 460 هـ / 1067م

⁶⁶ وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني. عالم رياضيات وفلكي مسلم، توفي بعد سنة 247هـ/861م، وولد في مدينة فرغانة في أوزبكستان اليوم.

أفضل الدين الخونجي⁶⁷ و على كتبه معتمد المشاركة لهذا العهد. و له في هذه الصناعة كتاب كشف الأسرار و هو طويل و اختصر فيها مختصر الموجز و هو حسن في التعليم.

4- الرحلة وأدبيات الملاحظة:

يستعين ابن خلدون في حديثه عن الإنسان بأدب الرحلة فقد كان كثير الترحال، من تونس إلى الاندلس، إلى الجزائر فمصر، فحل بها منظرا ومتقلدا لمناصب إدارية وتعليمية، وكل هذه البلاد تتعدد فيها مظاهر الجغرافيا والأجناس البشرية، ومظاهر الحياة السياسية والعلمية والثقافية وقد استفاد ابن خلدون من رحلاته كما يوضح ذلك في مقدمته في دراسة علم السياسة، والجغرافيان والعمران، والصناعات، والعلوم المختلفة.

يستخدم إن خلدون عادة مفردة أنظر بصيغة الأمر ليؤكد على ضرورة استخدام الملاحظة الدقيقة أو العلمية، التي تساعد على أعمال الفكر في خصائص الإنسان المتعددة ويستعين في ذلك بعالم الطبيعة التي تحوي مكونات جامدة ومتحركة، فتارة يقرن تكوين الإنسان بعالم النبات، وتارة بعالم الحيوان لتقريب الابعاد المختلفة المكونة له وفعاليتها داخل العمران.

⁶⁷ أفضل الدين الخونجي (590 - 646 هـ / 1194 - 1248 م) هو عالم بالحكمة والمنطق، فارسي الاصل. الزركلي، الأعلام، ج7، ص 122،

خاتمة:

لا يسعني في خاتمة هذا البحث إلا أن أؤكد على أن المقدمة مكسب علمي ثري بالمعارف المختلفة التي تساعد على تحليل الكثير من الإشكالات العصرية، ومنها مشكلة الإنسان باعتباره محور التغيير والتطوير، وأن تراجع هذا الإنسان عن دوره يحدث خللا في البنى المختلفة وهو الأمر الذي نلاحظه في كل المجتمعات حيث تعاني إما من طغيان المادة وغياب الأخلاق، (حال المجتمعات الغربية)، أو تعاني من غياب المادة وفقدان الأخلاق، (حال المجتمعات العربية)، وليس الكلام على الإطلاق لكن يكاد يكون كذلك، فالعنف والجريمة والظلم والاستبداد والقتل الميسر ديدنها وهي مظاهر استشرت وصارت لغة الحياة اليومية.

وللخروج من أزمة إخفاق الإنسان حاكما ومحكوما، فردا وجماعة، متعلما وجاهلا، غنيا وفقيرا، يطرح ابن خلدون الرؤية التكاملية لهذا الإنسان فيعتبره خليفة في الأرض وهو بموجب هذه الخلافة يشترط أن يتحلى بمجموعة خصائص تؤهله للبناء السليم وفق السنن الإلهية، كما يضع لذلك مجموعة قواعد تأسس لمبادئ أخلاقية وسلوكية يحقق من خلالها الإنسان مفهوم الخلافة، فيركز بشكل واضح على الإنسان الحاكم باعتباره الأساس في دائرة التغيير، فهو بموجب المسؤولية المسندة إليه يضع القوانين المنظمة للمجتمع، وهو الذي يسهر على تطبيق العدل ونشر ثقافة العمل والحرص على الأمن والاستقرار تنسده في ذلك السلطات التي يقوم بتعيينها، ويؤكد ابن خلدون أنه متى انتفت شروط القيادة الرشيدة، ذات المرجعية الإسلامية، خرب المجتمع وانهار.

ويركز ابن خلدون على الإنسان الفرد وهو الخلية الأصغر، فيضع قواعد تبنى عليها أخلاقياته وسلوكياته، منها ما يتعلق بالجانب الروحي ومنها ما يتعلق بالجانب المادي، فيرى في تعليمه قاعدة وقيمة في آن واحد، باعتباره أساس تربيته وتوجيهه وهيئته للمستقبل فيشير بذلك إلى مجموعة شروط يراها ضرورية في عملية التعليم ويركز على طرقه ومخرجاته، ويرى في ضرورة التعاون أساس الاستمرار وتوفير ضرورات الحياة، ويرى من الناحية الاقتصادية أنه في الابتعاد عن عادات الاستهلاك المفرط والترف المفرط ما يهلك ذاته ومن حوله، ويؤكد ابن خلدون من خلال السياق الأخلاقي أن الابتعاد عن نزعة الأنانية والفردانية والمصلحة الطاغية ما يهيء لبناء حضاري متميز.

ينطلق ابن خلدون من عدة أصول مرجعية للتأكيد على قواعد صياغة الإنسان المتحضر والقيم المتعلقة بها، منها القرآن الكريم والسنة النبوية، والتراث المعرفي والعلوم المختلفة وأدب الرحلة والتجربة الذاتية التي عاشها في عصر مليء بالمطبات والمشاكل المختلفة.

هذا والله الموفق

المراجع

- 1- القرآن الكريم
- 2- صحيح بخاري
- 3- صحيح مسلم
- 4- عبد الواحد وافي، عبد الرحمن ابن خلدون، حياته وآثاره ومظاهر عبقريته، وزارة الثقافة والارشاد القومي، الجمهورية العربية المتحدة، مكتبة مصر، دت.
- 5- ابن خلدون، المقدمة ، دار الجليل، بيروت، دت.
- 6- الجيلاي بن التهامي مفتاح، فلسفة الإنسان عند ابن خلدون، الجامعة الاسلامية العالمية، ماليزيان دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011.
- 7- خالد عبدالرحمن السالم، الضبط الاجتماعي والتماسك الأسري، الطبعة الأولى، 2000.
- 8- سعاد جبر سعيد، القيم العالمية وأثرها في السلوك الإنساني، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، 2008.
- 9- سلوى علي سليم، الاسلام والضبط الاجتماعي، مكتبة وهبه، الطبعة الاولى، 1985.
- 10- صلاح الدين بسيوني: القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1990.
- 11- علي أسعد وطفة، علي جاسم الشهاب، علم الاجتماع المدرسي، المؤسسة الجامعية، بيروت لبنان، 2004.
- 12- فوزية دياب، القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، بيروت، 1980.
- 13- محمد الشناوي وآخرون: التنشئة الاجتماعية للطفل، ، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، 2001.
- 14- محمد فاروق النبهان، الفكر الخلدوني من خلال المقدمة، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1998.
- 15- محمد مزيان، قراءات في طرائق التدريس، جمعية الإصلاح الاجتماعي والتربوي، باتنة، 1994.
- 16- مكفارلند، علم النفس والتعليم، ترجمة عبد العلي الجسماني وآخرون، الدار العربية للعلوم، بيروت، 1994.
- 17- منير المرسي سرحان، في اجتماعيات التربية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
- 18- موسى أبو حوسه، قواعد الضبط الاجتماعي عند الماوردي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد 17، المجلد 5، 1985.